واقع و مستقبل علم النفس في الجزائر– موضوعاته و منهجياته-

سمايلي محمود

m.smaili@yahoo.fr

الملخص

إن توظيف علم النفس بمختلف فروعه في المجتمعات العربية يواجه صعوبات متعددة على المستويين الموضوعي و المنهجي، فكثيرا ما تلاقي فروع هذا العلم تحديات يصعب التكييف معها، فهي في نظر بعض الباحثين العرب نتاج للصورة الجاهزة التي تؤخذ بها هذه العلوم في مجتمعاتنا دون مراعاة للخصوصية والظروف التاريخية لهذه المجتمعات.

و الجزائر هي الأخرى تواجه صعوبات عدة في تطبيق هذا العلم على واقعها الأمر الذي يحول دون تحقيق الأهداف المسطرة لذلك، خاصة في ظل التحديات المعاصرة الأمر الذي يدعو إلى ضرورة التفكير في الطرق والوسائل الكفيلة بتكييف مناهج و تطبيقات هذا العلم بحاجيات الفرد الجزائري و واقعه الاجتماعي.

المصطلحات

التحديات – الموضوع – المنهجية

Abstract

The application of psychology with its branches in the arab societies is facing several difficulties on both approaches the subject and the method. This science has confronted challenge which made complex adaptation. According to some searchers, mainly, Arabs found that this science is used without taking consideration its historical situations or factors.

Algeria is also facing that kind of difficulty in the application of science. But it achieved no good results. Thus, the necessity to find urgent ways and means is so important for both the individual and the Algerian society.

Concept: Challenge – subject- methodology

مقدمة:

يعتبر علم النفس المعاصر بمختلف فروعه من بين العلوم التي تساهم بشكل كبير في دراسة الإنسان وتفاعلاته بمختلف السياقات الاجتماعية و الثقافية و السياسية التي نشأ فيها، و إن مسار نشأة أي علم وتطوره تحدده مجموعة من العوامل، بعضها يشكل بنية العلم ذاته أي منطللقاته النظرية ومفاهيمه وقواعده المنهجية المساهمة في بلورته كعلم قائم بذاته له موضوع ومنهج خاص به، وعوامل أخرى تتمثل في الشروط الاجتماعية والسياسية والثقافية التي انبثق فيها هذا العلم، هذا بالإضافة إلى الحاجات الإنسانية إلى هذا العلم في الصحة والتعليم والتنمية(بربزي، 2010). و بالرجوع إلى السياق التاريخي لتطور هذا العلم نجد أن منهجيات و تطبيقات هذا العلم كانت مرتكزة منذ نشأته في أواسط القرن التاسع عشر و طوال القرن العشرين على خدمة أهداف و حاجيات المجتمعات (الرأسمالية الصناعية) التي نشأ فيها (عشوي،1992،ص 27)، و هي نفس الأهداف التي انطلقت منها باقي المجتمعات عن طريق تبني الطرح الفلسفي و الإيديولوجي لهذه المجتمعات التي تتخذ من الفرد أساس هذا العلم بجعله هو وحدة الدراسة و البحث و التعامل. و على اعتبار الجزائر من بين هذه المجتمعات، فقد أخذت هي الأخرى بهذا العلم في صورته الجاهزة واستهلكته دون مراعاة لتاريخها و ظروفها و توجهاتها، و في ظل تنامي و بروز بعض الحالات الإنسانية والظواهر السلوكية غير مسبوقة بفعل التحولات و التحديات المستجدة التي حملتها العولمة في شتى المجالات جعلت استخدامات هذا العلم في واقعنا اليومي (التعليم، الإدارة، الصحة، التأهيل...) غير قادرة على مسايرة هذه المستجدات.

هذا الوضع دفع إلى ضرورة التفكير في تكييف مناهج و موضوعات هذا العلم بالواقع الجزائري و استحداث فروع جديدة تساير هذه المستجدات للحفاظ على استمراره و تطوره.

ومن هذا المنطلق سنحاول في هذا المقال تناول نشأة علم النفس في الجزائر، و أهم التحديات التي واجهت تطبيقاته و منهجياته في الواقع الجزائري .

1- نشأة و تطور علم النفس في الجزائر:

قبل الحديث عن تطور و نشأة علم النفس في الجزائر ارتأينا أن نعرج شيء ما على مسار تطور هذا العلم في المجتمع الغربي و المجتمع العربي، لارتباط و تأثر مسيرة ظهور و تطور علم النفس في الجزائر بشكل كبير بهذه المجتمعات.

إن تطور أي علم من العلوم في أي بلد يتوقف إلى حد كبير على توفر وتطور المؤسسات التعليمية فيه، وتحديدا على منظومة التعليم العالي المتخصص ومؤسساته، وهذا الأمر يتوقف بدوره على التطور الاجتماعي و السياسي والاقتصادي في هذا البلد أو ذاك، و لقد أظهر التطور التاريخي للعلوم أن التحولات الاجتماعية والاقتصادية و الثقافية و العلمية التي طرأت على المجتمعات الأوروبية في مختلف ميادين الحياة ساهمت بشكل كبير في تطور مختلف العلوم، ومنها بالخصوص العلوم النفسية كنتيجة للنهضة العلمية التي اجتاحت أوروبا منذ القرن الخامس عشر بفضل العديد من العلماء و المفكرين الذين ساهموا بأفكارهم وتجاربهم في تأسيس هذا العلم أمثال ديكارت و جون لوك ، و سبنسر ، و هيوم...الخ، وعلى رأسهم عالم النفس الألماني فونت الذي يجمع معظم العلماء على أنه المؤسس الحقيقي لعلم النفس كعلم تجريبي (نزار ،1995).

أما في العالم العربي بالعودة إلى السياق التاريخي لنشأة علم النفس نجد أن البحث في الظواهر الإنسانية والاجتماعية لم ينشأ في سياق صيرورة تاريخية

مجتمعية سياسية معرفية عامة كما هو عليه الحال في تاريخ المجتمعات الأوروبية، بل إنه نشأ في إطار عمليات التغريب التي فرضتها رياح الآوربة القوية التي اكتسحت العالم في نهاية القرن الماضي(Laroui ,1974 ,p102)، وتمكنت من فرض سيطرتها بمختلف الوسائل. ففي إطار هذا المناخ التاريخي اللامتكافيء واقعيا وموضوعيا تَعَرَّفَ العربُ على العلوم ومناهجها ونتائجها، كما تعرفوا على مختلف مظاهر الحياة وأنماط السلوكات التي انتقلت إليهم بفعل الاستعمار المباشر، ثم بفعل التأثيرات التي ترتبت عنها في تكوينات المجتمع وبنيات الواقع وفي مختلف جوانب الفكر والثقافة والمعرفة (الكنز،1986).

و هو الرأي الذي خلص إليه (خليفة،1984) في أن البحث في علم النفس ومختلف الفروع التخصصية له لم ينشأ بالآليات والوسائل العلمية مثلما حصل في التاريخ الغربي بفعل عملية تاريخية ذاتية، موصولة بصيرورة في النظر إلى هذه الظواهر ضمن سياق تطور الأفكار والعلوم وتطور المجتمعات، قدر ما نشأ في سياق عملية تقليد أفرزتها متغيرات خارجية وافدة .

هذا الواقع كان له تأثير واضح في نشأة علم النفس في العالم العربي، فعلى حد ذكر العديد من المؤرخين فإنه لا يوجد تراث فكري أصيل أو آثار يمكن وصفها بأنها محاولات حقيقية هدفت فعلا لتأسيس علم النفس في البلاد العربية باستثناء بعض المؤلفات والكتب النفسية، لبعض المؤلفين و الباحثين في لبنان و مصر ككتاب " الدروس الأولية في الفلسفة العقلية " لصاحبه دانيال بولس الأمريكي الأصل والمقيم في لبنان، وقد نشر بالعربية عام 1874 ليكون كتابا مدرسيا يحتوي على المبادئ الأولية في الفلسفة وعلم النفس، وعالج مجموعة من المواضيع النفسية كالمشاعر والإرادة والذاكرة والنسيان (عاقل، 1965)، بالإضافة إلى بعض المقالات والدراسات النفسية لبعض المفكرين أمثال يعقوب صروف الذي تناولت مقالاته في إطار علمي

لمواضيع الذاكرة و اضطراباتها، وعلاقتها بالوظائف الفيزيولوجية، والخيالات والتخيلات وأسبابها، والعقل والجسد، وغيرها إلى جانب مقالات لمؤلفين آخرين كفارس نمر ، وشاهين مكاريوس التي كانت تنشر في مجلة أسست لهذا الغرض باسم مجلة " المقتطف "، و كتاب "معجم مصطلحات علم النفس" لمنير وهيبة الخازن سنة 1956، و قاموس التربية و علم النفس التربوي الذي أصدره مجموعة من المؤلفين من الجامعة الأمريكية سنة 1960(عاقل، 1965).

أما في مصر فإن علم النفس لم يكن بين المواد التي تدرس كموضوع قائم بذاته بالرغم من انتشار المدارس وتوفر الأقسام التي تهتم بتدريس مختلف العلوم و البحث في الظواهر الإنسانية، سواء في كليات الآداب والعلوم الإنسانية، أو في كليات الحقوق، أو في بعض المعاهد المتخصصة في مجالات إنسانية محددة، تبلورت الجهود المعرفية الأولى لبناء الظواهر الإنسانية العربية، وتلاحقت متتابعة في النصف الثاني من هذا القرن، متجهة صوب الإحاطة بموضوعات الظواهر الإنسانية في أبعادها المختلفة ، ولم يظهر في مناهج التدريس إلا في سنة 1906 (أبو حطب، 1997).

أما بالنسبة للمؤلفات التي وجدت آنذاك فقد كان أول كتاب يحمل اسم علم النفس ويعالج مواضيعه هو "كتاب علم النفس " للشيخ محمد شريف سليم الذي ألفه عام 1895 لكنه لم ينشر إلا عام 1911 عندما تقرر تدريسه في مدارس المعلمين والمعلمات. إلى جانب بعض المقالات و الدراسات المنشورة في مجلة "المقتطف" اللبنانية عندما انتقلت إلى مصر عام 1885، كمقالات " تناولت بعض الظواهر النفسية كالتنويم المغناطيسي و جولان النائم ومناجاة الأرواح (عاقل،1965) .

أما في باقي البلاد العربية فإن علم النفس مثله مثل باقي العلوم الإنسانية لم يكن يحض بكثير من الاهتمام بالمقارنة مع العلوم الأخرى بفعل الأوضاع السياسية و

الاجتماعية، و الحاجات الاقتصادية، والطبيعة الثقافية السائدة فيها. و مع ذلك نشير أن هناك بعض المفكرين و الباحثين في علم النفس ممن كان لهم دور في عملية تأسيس علم النفس في مجالات محددة مثل أحرشاو في المغرب و دوره الرائد في تأسيس علم النفس المعرفي على مستوى العالم العربي، و مصطفى صفوان و زيعور و دورهما في التحليل النفسي، و مراد في علم النفس التكاملي، و فؤاد أبو حطب و الكيلاني و عدس و توق في علم النفس التربوي، و علي زيعور في علم النفس الفلكلوري، والخطيب في علم نفس الفئات الخاصة، وفتحي جروان في رعاية الموهوبين، و مالك بدري الذي يعتبر رائد حركة توطين علم النفس في الوطن العربي (الخليفة ،2003).

و هكذا يتبين لنا مما سبق أن الثقافة النفسية لم تولى بالاهتمام اللازم في المجتمعات العربية باستثناء مصر و لبنان التي نشرت فيهما الدراسات و المقالات النفسية في نهاية القرن التاسع عشر.

أما في الجزائر يجمع العديد من الباحثين أن مسيرة علم النفس لم تبدأ إلا في مطلع السبعينات من القرن العشرين، بالرغم من وجود بعض المناهج الموروثة عن العهد الاستعماري التي كانت معظمها موجهة لتكريس الفكر الاستعماري بتدريس الشخصية الاستعمارية و تمجيد أفكارها، و بالتالي فإنه في ظل هذه الظروف لا يمكننا الحديث على علم نفس حقيقي بمواصفات موضوعية و منهجية .

و قد ظهرت معالم علم النفس في الجزائر عند تأسيس الجامعات و المعاهد التي اهتمت بتدريسه فقد كانت جامعة قسنطينة 1969 تضم كلية علم النفس التي يتلقى فيها الطلاب جميع العلوم النفسية، بالإضافة إلى المعهد العالي للعلوم الاجتماعية التابع لجامعة وهران الذي كان يضم قسما لعلم النفس، و هي في الحقيقة كانت امتداد للنموذج الفرنسي تمنح تكوينا في الثقافة العامة و في علم النفس العام، وعلم النفس الطفل، و علم النفس المراهق، و علم النفس الاجتماعي

تدرس في كليات الآداب، أما تخصصات علم النفس الفيزيولوجي العام و علم النفس الفيزيولوجي المقارن تدرس بكليات العلوم يتوج من خلالها الطالب بشهادة ليسانس في إحدى هذه التخصصات (Kacha ,2012).

مع مطلع السبعينات و تزامنا مع الإصلاحات الجامعية التي أطلقها آنذاك وزير التعليم العالي محمد الصديق بن يحي سنة 1970 ، و صدور القرار الوزاري المؤرخ في 1971/08/25 الذي حدد التدابير المتعلقة بالتعريب في التعليم العالي و فتح أقسام جديدة باللغة الوطنية (ناشف، 2011، ص74) ، تم منح أولوية لعلم النفس ضمن الهيكلة الجديدة للتعليم العالي في الجزائر بإعادة تنظيم التكوين في علم النفس باستحداث جذع مشترك يتلقى فيه الطلبة تكوينا لمدة سنتين بعدها يوجهون إلى خمسة تخصصات في ميدان علم النفس الإكلنيكي، و علم النفس العمل، و علم النفس التوجيه المدرسي و المهني، و علم النفس البيداغوجي، والارطوفونيا ، ليتم إنشاء فيما بعد بعض المعاهد التي اهتمت بتكوين المعلمين التي كانت تدرس مناهج علم النفس، و لهذا الغرض فقد استعانت الجامعات الجزائرية بالأساتذة الأجانب المعارين من الجامعات الأجنبية لتدريسها، و أوفدت العديد من الطلاب إلى الجامعات العربية و الأجنبية لتحصيل هذه العلوم النفسية و هو ما كان لها الأثر الكبير في تشكل صورة علم النفس في الجزائر(Kacha,2012).

أما نشاط حركة علم النفس في الجزائر بعد الاستقلال فقد كانت شبه منعدمة بفعل المغادرة الجماعية للممارسين و الأطباء النفسانيين للجزائر، مما انجر عنه ترك ما يقارب 6 ألاف سريرا لمرضى الأمراض العقلية والنفسية ممن كانوا يعانون من اضطرابات نفسية و عقلية جراء مخلفات الفترة الاستعمارية، فيما كان عدد الأخصائيين النفسانيين إلى غاية سنة 1978 في الجزائر سوى ثلاثة و أربعون

أخصائي نفساني في الصحة العمومية على المستوى الوطني، من بينهم احد عشر هم أجانب (Kacha,2012).

هذه الظروف جعلت اهتمامات علم النفس بمختلف الوضعيات الاجتماعية و الصحية و النفسية في بادئ الأمر داخل المراكز الصحية و الاستشفائية خاصة، فقد أنشئت عدة وحدات مختصة في الطب النفسي تتوزع في بعض المستشفيات يؤطرها أطباء مختصين في الطب النفسي مثل المركز الصحي البيداغوجي بالجزائر العاصمة 1976، و مصلحة الرعاية النفسية للأطفال المتأخرين دراسيا بالبليدة (p23, Boucebci,1982) .

كما تجدر الإشارة إلى أنه في تلك المرحلة وجدت مدرستين متخصصتين تابعتين لوزارة التربية موجهة للتلاميذ المتخلفين عقليا بوهران و الجزائر العاصمة.

أما على المستوى التنظيمي، فقد عانى علم النفس من التهميش لسنوات طويلة نتيجة عدم وجود إطار قانوني و تنظيمي ينظمه و يسيره، و هذا ما جعله لا يحض بالقبول و الاهتمام لدى غالبية أفراد المجتمع، بصدور القرار رقم 65-73 المؤرخ في 16 افريل 1973 و المتعلق بالقانون الخاص بالممارسين النفسانيين في مجال الصحة العمومية اكتسب علم النفس الصفة القانونية التي تنظم ممارسته و ازداد نشاطه، ففي سنة 1974 أنشئت جمعية متخصصة في مساعدة الأشخاص الذين يعانون من سوء التكيف (Aide aux inadaptés) ، كما أسست لجنة تضم مجموعة من الوزارات تهتم بمشاكل الأطفال الذين يعانون من سوء التكيف سنة 1973 (Boucebci,1982 ,p51) .

و بداية من التسعينات مع صدور القرار رقم 111-91 المؤرخ في 27 افريل 1991 المتعلق بتنظيم مهنة الأخصائي النفساني و التكوين فيها و كيفية الالتحاق بها، بدأ يتجلى الاهتمام المتزايد بعلم النفس خاصة في ظل الظروف الاستثنائية و الأمنية

التي شهدتها الجزائر آنذاك، و هو ما ساهم في انتشار تدريس علم النفس بفروعه في المدارس الثانوية والمعاهد المتخصصة في التعليم و التربية، وفي مختلف أقسام وكليات الجامعات الجزائرية التي تزايدت أعدادها خلال هذه الفترة، كما تجلى هذا الاهتمام بتزايد الحاجة إلى المختصين النفسانيين في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، و التربوية، والسياسية، والثقافية، والإعلامية، و المهنية، وبصدور العديد من الكتب والمؤلفات في العلوم النفسية.

أما النشاط الفكري و البحثي للباحثين في هذا المجال فقد اقتصر على عدد قليل من الباحثين أمثال الأستاذ خالد بن ميلود ، محفوظ بوسبسي، سامية بن نونيش ، لطيفة بلعروسي .....لكون غالبيتهم اشتغلوا بميدان الصحة النفسية كممارسين نفسانيين من جهة، و من جهة أخرى علم النفس لم يكن منتشر بشكل كبير في الجامعة الجزائرية، كما نشير أيضا أن اهتمام الباحثين الجزائريين بعلم النفس و لم يكن داخليا فقط بل امتدت نشاطات مؤسساته إلى عدة جامعات أجنبية، و منظمات دولية، و إقليمية من أجل إرساء قواعد جديدة لتفعيل هذا العلم فقد ساهمت في تأسيس الاتحاد العربي لعلم النفس عام 1995، و الاتحاد المغاربي للطب النفسي " الذي بدأ منذ أوائل التسعينيات بإصدار "المجلة المغاربية للطب النفسي " باللغة الفرنسية، إلى جانب المشاركة في العديد من المؤتمرات والندوات النفسية الدولية التي تؤدي في تمتين الروابط بين الباحثين و تبادل الخبرات (تقارير المؤتمر العربي لعلم النفس،1998)، كما كان لهذه الحركة الأثر البارز في صدور العديد من الدوريات النفسية المتخصصة و بعض الكتب والبحوث النفسية.

2- واقع علم النفس في الجزائر:

إن الجيل الأول من الباحثين المشتغلين بحقول العلوم النفسية و مختلف فروعه في الجزائر، وهم في الغالب من خريجي الجامعات الأوروبية حاولوا القيام بمحاولات تمهيدية لدراسة طبيعة الظواهر الإنسانية والاجتماعية، مع محاولات متعددة للتفسير والتأويل لم ترقى إلى مستوى المطلوب، وذلك بحكم جملة من العوامل التي ظلت تتحكم في إنتاجها العلمي، ونذكر منها على وجه الخصوص هيمنة و سيطرة الآليات والمناهج الغربية التي وظفت لتشخيص وكشف طبيعة بنيات المجتمع الجزائري، إلى جانب نقص الإمكانيات والاعتمادات المخصصة للبحث العلمي، وعدم إدراك الدولة لأهمية وجدوى المعرفة العلمية في مجال الدراسات الإنسانية.

لقد ظل علم النفس في الجزائر في مراحله الأولى يعتمد بصورة رئيسة على النظريات والمنطلقات والاختبارات والمقاييس النفسية ذات المنشأ الغربي، الأمر الذي أدى إلى اتسام علم النفس في الجزائر بالسمة الغربية بدلا من أن يكون له هويته المتميزة، القائمة على معطيات و خصوصية الثقافة الجزائرية، ما جعل مناهجنا التعليمية في علم النفس لا تقوى على التجرد من هذه العلاقة و الارتباط باتجاهات سيكولوجية لا علاقة لها بخصائص الفرد الجزائري ومقوماته الأساسية، مما أدى إلى انعدام منهجية أصيلة تعالج الواقع الاجتماعي، و افتقاد موضوعات علم النفس في الجزائر لهويتها التي تميزها عن المجتمعات الغربية مما حد من قدرتها على تحليل ومعالجة هذا الواقع.

فموضوعات علم النفس التربوي و الصناعي كما هي مجسدة مثلا في مناهجنا التعليمية الجامعية كما ورثناها و تعلمناها تهدف في المحل الأول إلى الإعداد و التأهيل من أجل التحكم و التكوين و اكتساب المهارات الضرورية لخدمة أغراض المجتمع، و الحال نفسه بالنسبة للقياس النفسي و علم النفس التجريبي اللذان

يهدفان إلى خدمة المعرفة والتشخيص عن طريق دراسة الطاقة البشرية و حركتها، و على كيفيات التعلم والسلوك في مختلف المجالات فهذه المواضيع بهذه الصورة و الشكل في الحقيقة تعكس حاجات المجتمعات الغربية الصناعية، لأن القاسم المشترك في توظيف هذه الأهداف لدى هذه المجتمعات هو التحكم بالإنسان و طاقاته إنتاجا و استهلكا وتكيفا سلوكيا و انفعاليا لأن الفرد لديها هو أساس هذا العلم و وحدة الدراسة والبحث و التعامل (حجازي، 2001).

أما الواقع الجزائري يختلف تماما في نظرياته و منهجيته و تطبيقاته لان خصوصية التكوين النفسي - الذهني لأي مجتمع يفترض أن تتشكل تبعا للتوجهات الثقافية و مرجعياتها التي بدورها تعمل على عملية توطين المعرفة و تسمح في التعامل مع النظريات و المنهجيات بشكل انتقائي، بما يخدم عمليات تفعيل الخصائص الثقافية المجتمعية لتوظيفها في عملية التنمية الوطنية و هو ما تفتقده مناهجنا و موضوعاتنا في علم النفس، الأمر الذي جعله يعيش عزلة في نماذجه المحدودة و مقارباته الجزئية لموضوعات بحثه، لأنه لم يستوعب التحولات و المستجدات الحاصلة في النظرية والمنهج و المقاربة التي تهتم بشكل متزايد بالتفكير الايجابي والمواقف الايجابية في التعامل مع الحياة اليومية و قضاياها و تحدياتها، بالرغم من المحاولات الإصلاحية لمناهجه و مقرراته في إطار نظام (ل م د) بجعلها أكثر انسجاما و تناغما مع متطلبات الحياة الاجتماعية للفرد الجزائري و انفتاح تخصصاته و فروعه و تكييفها مع متطلبات سوق العمل و التحديات العالمية في مجال المعرفة، و يمكن أن نلخص هذا الواقع فيما يلي :

أ- معظم الكتب والمؤلفات النفسية الصادرة في الجزائر، قد وضعت لغاية تعليمية بحتة، ولم تكن هذه المراجع والدراسات تهدف إلى رفع مستوى الثقافة النفسية لدى القارئ عامة وزيادة وعيه النفسي، إلى جانب كونها تتميز بالقدم و انعدام الأصالة

وتقوم على الترجمة أو الاقتباس،فهي في الأغلب تناقش قضايا منفصلة تماما عن المشاكل والبيئة والثقافة الجزائرية .

ب - غالبية الكتب والدراسات النفسية الصادرة تعتمد على النقل والتكرار والاجترار إلى درجة الاستهلاك مع طغيان الطابع الأكاديمي النظري بعيدا عن الجوانب العملية والتطبيقية، بسبب انعدام أو قلة معاهد للتكوين والتدريب، والمختبرات، والمراكز النفسية، و ما وجد منها غالبا ما يقترن بالحصول على شهادة جامعية أو تغيير وضعية مهنية أو الترقية.

ت- علم النفس بفروعه المختلفة لم يدخل بعد حياة المواطن والمجتمع عامة، مما جعله لا يلقى إقبالا من طرف عامة الناس و التصاق العديد من الشائعات به ما جعله يعاني من تمثل اجتماعي مشوه، قوامه أن من يخضع للتدخل النفسي "أحمق و مريض "، و المشتغل بعلم النفس في صورة الرجل الغامض و كثير الكلام الذي يقوم بحركات وسلوكات غريبة (زيعور،1987) ، هذه التمثلات الاجتماعية حول علم النفس كانت سلبية للغاية و لم تساهم في تطوره، و هي تفسر على أن معظم الناس لا يعرفون علم النفس بصورته الصحيحة، إذ يعتبر الشخص الدارس لهذا العلم في تصورهم مطلعا على دواخل النفس البشرية (مثل الساحر أو المنجم...)، والنفس البشرية شيء غامض لا يمكن الوصول إليه إلا بأساليب تشبه السحر والتنجيم وغيرهما، من جهة أخرى، إن ارتباط الاضطرابات النفسية في المخيلة الشعبية بالطابع الأسطوري السحري والغيبي (الجن والمس وغيرها) قادت إلى بلورة هذا التصور (بلحاج، 2010، ص27)، الأمر الذي سبب خلط كبير بين علم النفس كعلم ذي منهجية علمية وبين موضوعات أخرى لا علاقة لها بعلم النفس كالتخاطر، والاستشفاف LAIRVOYANCE، والحركة النفسية PSYCHOKINESIS، وسبق المعرفة PRECOGNITION وغيرها.

ث - ضعف الممارسة الميدانية لعلم النفس كمهنة، فالعيادات النفسية المتخصصة قليلة حتى في المدن الكبرى و لا تلقى رواجا كبيرا، وكذلك الأمر بالنسبة لمراكز التوجيه المهني و المدرسي و الوحدات الصحية المدرسية والنفسية التي لا تقوى على متابعة و التدخل في جميع المدارس، على الرغم من بعض التوجهات نحو إدماج مختصين نفسانيين في بعض القطاعات الصحية و الأمنية و المؤسسات العقابية...الخ، كما أننا لا نجد أثرا لعلم النفس في المؤسسات الاقتصادية أو التجارية أو الإدارية أو غير ذلك من مجالات الحياة الاجتماعية، هذا على الرغم من التطور الهائل للعلوم النفسية والاجتماعية ودخولها جميع ميادين الحياة، وهذا أمر ينعكس سلبا على فرص العمل المتاحة أمام خريجي علم النفس.

- الغموض القانوني في مجال الصحة النفسية، إذ أن القانون يعطي كل الصلاحيات للطبيب النفسي، سواء تعلق الأمر بالخبرة أو تقييم الحالة النفسية وتشخيصها، وغيرها من الصلاحيات القانونية، في حين نجد أن الأخصائي النفساني مهمش و مجرد من هذه الصلاحيات .

ج - عدم دخول العلوم النفسية والإرشاد النفسي إلى المدرسة الجزائرية بجميع مراحلها، فلا توجد خدمات نفسية و لا عيادات نفسية اجتماعية أو تربوية أو إرشاد نفسي في مدارسنا، و إن وجدت فإنها تفتقد للإمكانيات و لا تلبي جميع الحاجيات، حيث يوجد مختص نفساني واحد برتبة مستشار للتوجيه و الإرشاد المدرسي و المهني لأكثر من أربع مؤسسات تربوية، كما لا توجد روائز للذكاء أو مقاييس للقدرات والشخصية والمواقف مكيفة بحسب طبيعة المجتمع الجزائري إلا نادرا، و هذا كله يزيد من نفور العديد من الطلبة في التوجه لدراسة علم النفس.

ح – عدم توفر مستلزمات التكوين و البحث العلمي في العلوم النفسية ومتطلباته وأدواته وشروطه بشكل جيد، سواء في الكليات والجامعات أو في المراكز والمؤسسات

الأخرى، مما جعل المتخرجين أنفسهم عاجزين من أداء وظائفهم بعد الولوج فيها رغم كونهم يحملون شهادات تشير إلى أنهم مؤهلون لذلك لكون المحتويات التعليمية التي تلقوها تفتقد للمعارف و المعلومات التي كان من الواجب أن تتضمنها تلك المحتويات باعتبارها من المتطلبات الأساسية للتخصص (عواشرية،2010،ص248).

خ - إن تنوع الاتجاهات والتيارات في تكوين بعض المهتمين و الباحثين في علم النفس قد أدى إلى الصراعات بينهم (المفرنسين و المعربين) بقدر ما أثرى بلا شك الأبحاث والدراسات في العلوم النفسية، و أدى إلى انعدام تصور نظري متسق بينهم يقوم على منطلقات ومسلمات أساسية واحدة، وهذا ما أدى إلى تشتيت جهود الباحثين والمختصين النفسانيين، وعدم تركيز بحوثهم ودراساتهم على دراسة المشكلات الاجتماعية في الجزائر، و على تعزيز دور العلوم النفسية في عملية التنمية الاجتماعية.

ع - عدم انفتاح منهجيات و موضوعات العلوم النفسية على الواقع الاجتماعي و الاقتصادي و الثقافي المعاش، و تمركزها في دائرة الجامعات والمصحات والعيادات جعلها تفتقد إلى المشاركة الفعالة في خدمة المجتمع وتنميته، ومواجهة التحديات المتسارعة التي يحملها القرن الحادي والعشرون.

3- التحديات التي يواجهها علم النفس في الجزائر:

إن التحديات و التحولات المستقبلية تفرض على المهتمين بعلم النفس التكيف مع هذه المتطلبات، فالتحولات التي تفرضها العولمة تجعل كل شيء يتحول بشكل متسارع حيث ينفتح كل شيء على الآخر في حالة من الاعتماد المتبادل، فتنتشر ظواهر العولمة الاجتماعية و النفسية التي تؤدي إلى اختلال في البنى الاجتماعية و التعليمية و الثقافية و الاقتصادية للمجتمعات مما تحتم على علم النفس تغيير موضوعاته و منهجياته .

1-3- التحديات على مستوى الموضوع:

إن اهتمامات معظم تخصصات علم النفس في الجزائر كما سبق توضيحه لا تزال تهتم بدراسة الموضوعات الكلاسيكية القديمة التي ورثتها من الغرب، بالرغم من التحول الواقع في موضوعات هذا العلم على المستوى العالمي و التي قطعت شوطا كبيرا في هذا المجال نتيجة ما أفرزته العولمة من انفجار معرفي و ثورة للمعلومات و المصطلحات التي غيرت اتجاهات و موضوعات العديد من العلوم، ففي علم النفس لم تعد المراهقة تمثل محور اهتمام هذا العلم بوصفها مرحلة الأزمات التي يعيشها المراهق بل حل محلها موضوع الشباب كرؤية حديثة و مستقبلية تهتم بقضاياه، والذي أصبح هو أيضا موضع اهتمام معظم العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع، الإعلام، الاقتصاد.... التي اتجهت نحو هذا المنظور الجديد بالدراسة و التحليل باعتبار أن هذه الفئة تمثل قوة المجتمع و الجيل القادر على مواكبة تحولات العولمة والمشاركة و الاندماج فيها ما يجعلها منافسا حقيقيا لعلم النفس و مهددا لكيانه (حجازي، 2001).

و عليه فإن علم النفس مطالب بالاهتمام بالشباب و دراسة تأثيرات هذه التحولات على حياته النفسية والسلوكية بوصفها ظواهر جديدة تصلح كموضوع لعلم النفس مثل الإدمان على الانترنت و العيش في الواقع الافتراضي الذي أصبح يهدد الواقع الفعلي، بالإضافة إلى ظاهرة التنميط الكوني للشباب (أوربة و أمركة الشباب)، و الانتماء إلى العالم (universel) أو اللامكان مقابل الهوية و الانتماء و القيم و التاريخ، وكذا مشكلة فقدان المرجعية لأن الشباب لم يعد يتخذ من هو أكبر منه تجربة و خبرة كمرجع يقتدي به في حياته بل أصبحت مرجعيته في ذلك وسائل الاتصال و التكنولوجيات الحديثة (حرب، 2000).

أما على المستوى التربوي التعليمي فإن الاتجاهات التقليدية في دراسة موضوعات علم النفس توحي بأن التغيرات المصاحبة للعولمة و التطور التكنولوجي لم تعد تولي اهتمام لمثل هذه الموضوعات التي تركز على نظام الرتب و الدرجات في العملية التعليمية باعتبارها مشكلة فعلية تشغل الجميع (المعلم ، التلميذ والأسرة) لما ينجر عنها من ضغوط نفسية، لكن مع التطورات المستقبلية و تفاعلاتها و انفتاحها على سوق العمل أصبحت الحاجة إلى الصحة النفسية و الكفاءة الاجتماعية بالتوازي مع المقدرة المعرفية من أهم اهتمامات هذا العلم، و هذا ما دعا إليه جاردنر بقوله " أنه آن الأوان كي نصرف وقتا أقل في تصنيف رتب الأطفال، ووقتا أطول في مساعدتهم على اكتشاف كفاءاتهم و مواهبهم الطبيعية و تنميتها ، إذ أن هناك المئات من طرق النجاح في الحياة، و هناك العديد من القدرات المختلفة التي تساعد في الوصول إليه" (حجازي، 2000).

إذن فإن هذه التحديات تفرض على علم النفس الاهتمام بتنمية الكفاءة العامة للشخصية كموضوع له يتجاوز من خلاله ظاهرة تعظيم الدرجات و الرتب التحصيلية إلى تعظيم النجاح، وذلك بتآزر الجهود بين الأسرة و المدرسة و المؤسسات المجتمعية ، و لهذا فإن علم النفس في الجزائر مطالب بأن يوسع من إسهاماته في قضايا التربية و التعليم و تجاوز الدوائر الضيقة التي كان يهتم بها إلى الاهتمام بمواضيع أكثر أهمية تهتم بالتنشئة المستقبلية و الكفاءة الشخصية الكلية، التي أصبحت من أكثر المواضيع تناولا في المناهج التعليمة للدول المتطورة بالتوسع في تطبيقات الذكاءات المتعددة و النمو المتسارع لمفاهيم الذكاء الانفعالي و تطبيقاته التربوية التي تدفع إلى التفاؤل و الايجابية، إلى جانب برامج الصحة النفسية المدرسية المعاصرة التي تنمي الكفاءة الشخصية الكلية و تهدف إلى إدماج الصحة

النفسية و الكفاءة الاجتماعية والمهنية و الروحية في كل مجالات البرنامج الدراسي (حجازي،2001).

3-2- التحديات على المستوى المنهجي:

إن التغير في موضوعات علم النفس يفرض بدوره تغير في منهجياته لأن التحول من المنظور الكلاسيكي القديم لعلم النفس القائم على المقاربة الفردية يتطلب توسيع نطاق الرؤية لهذا العلم من الفردية إلى المجتمعية لأنه في مواجهة قضايا جديدة تتطلب التحول من الرؤية المصغرة (الفردية)(Micro vision) إلى الرؤية المكبرة (المجتمعي) (Macro vision) وصولا إلى المنظور المضخم (المعولم) (Mega vision) ، كما أن العديد من الباحثين يرون في الظواهر المصاحبة لهذه التحولات بأنها لم تعد ذات مقاربات فردية بل ذات امتدادات عالمية (الشباب، التنشئة، الجودة، العولمة، شبكات التواصل...الخ) ، و تعقيدات عالية كما هو ملاحظ في ظواهر العنف و تنميط الشباب التي أصبحت تتجاوز التفسير الفردي التقليدي (حجازي،2001).

إن هذا المنظور الجديد يتطلب تطوير الرؤى و المفاهيم و المنهجيات القادرة على التعامل العلمي مع هذه التحولات الأمر الذي يدفع إلى إعادة النظر في ممارسات و نطاق أدوات علم النفس كما سبقت الإشارة إليه أمام ظواهر عالية التعقيد و متشابكة تتطلب مقاربة منهجية مركبة بدورها، فمشكلات الشباب المعاصر تتدخل فيها مجموعة من العوامل البيولوجية، و النفسية، و الاجتماعية، و التربوية، و الثقافية، والإعلامية، و المعلوماتية، و الاقتصادية، و السياسة، و بالتالي فإن الحاجة إلى العلوم الأخرى و إسهاماتها لدراسة هذه الظواهر و تشخيصها و تحليلها أصبح ضرورة ملحة تفرضها متطلبات العولمة مثلها مثل المشكلات الاقتصادية لأن الضرورات هي التي تفرض تكامل مختلف العلوم (السياسية،و الاجتماعية، والاقتصادية، و الإعلامية ...) في مقاربات متكاملة، و بالتالي فإن علم النفس أصبح

مطالب بالانفتاح على هذه العلوم خاصة العوم التكنولوجية و تطبيقاتها و التكيف معها، و الخروج من دائرته الضيقة ليندمج ضمن هذه المقاربة الشاملة تمكنه من تجاوز أدواته المنهجية الفردية (الاستبانة، والاختبارات، و المقابلات و الملاحظة ...) و المتغيرات التي لا تمت بصلة إلى الواقع و التي تطبق بشكل جامد ونمطي على أي مشكلة بحثية .

ومن هنا فإنه بات من المحتم على علم النفس و ممارسيه في الجزائر التكيف و الاندماج مع هذه المعطيات الحديثة بحيث يضمن الدور المنوط به في بناء المعرفة المستقبلية و التفاعل مع التحولات المتسارعة والمعقدة، و على المهتمين بهذا العلم التفاعل و التواصل فيما بينهم من أجل الاستفادة من النماذج المعرفية والمقاربات البحثية التي أصبحت تقتضيها هذه المرحلة، و الاستيعاب الفعلي و الجاد لمرتكزات هذا العلم والتعامل معها وفق حاجات و واقع و خصوصية المجتمع الذي ينتمون إليه و لتحقيق ذلك ينبغي من نشر وتعميم الثقافة النفسية داخل المجتمع و ذلك بربط المقررات النفسية المدرسة بمختلف فروعها ومجالاتها وميادينها بالمؤسسات الاجتماعية والصحية والثقافية والإعلامية والتربوية و غيرها من المؤسسات الأخرى.

إلى جانب إعادة النظر في إعداد المختصين في العلوم النفسية بحيث لا يقتصر إعدادهم على مهنة التعليم وحدها، بل يشمل جميع الميادين التي دخلتها فروع علم النفس كالصناعة والتجارة،و التربية، والإعلام، والجيش والشرطة، والقضاء، والثقافة والفنون، وغيرها من المجالات تطبيقا لأهداف الهيكلة الجديدة لنظام (ل م د) التي تبنتها الجزائر منذ إصلاحات 2007 حيث أصبحنا نجد العديد من التخصصات المستحدثة التي تطابق الواقع الجديد و احتياجاته و أهدافه منها مثلا تخصصات علم النفس الشباب بدلا من التخصص التقليدي علم النفس المراهقة، و علم النفس التنشئة بدلا من علم النفس التربوي....، الأمر الذي يؤدي إلى توسيع

مجالات العمل أمام المختصين بالعلوم النفسية، والإفادة منهم في مختلف جوانب الحياة والعمل والإنتاج، و يشجع في الإقبال على هذا العلم.

كما أن لتوطين علم النفس و تأصيل نتائجه المعرفية و ربطها بالبيئة والثقافة الجزائرية دور في زيادة الاهتمام به، فمن اجل تطوير المعرفة السيكولوجية محليا والمساهمة في الانشغالات المطروحة على المستوى العالمي، فيما يتعلق بالبحث والممارسات، يقتضي ضرورة الانفتاح على العلوم الأخرى بالتفاعل و التواصل مع الثقافات الأخرى و الباحثين الأجانب لتبادل الآراء و الأفكار و الاطلاع على تجاربهم، و لا يتسنى لنا ذلك إلا من خلال تواصل حقيقي وتسجيل حضور محترم من خلال الإنتاج والعطاء والإبداع. وذلك سواء بالنسبة لتبادل المعلومات والأبحاث والتجارب، أو بالنسبة للقضايا التي تطرح في التظاهرات العلمية(بلحاج،2014).

إن التواصل المبني على التبادل بدل النقل أو التحويل من شأنه أن يحقق دينامية في العلاقات العلمية، ويفتح آفاقا في التعامل من شأنه أن يحفظ الهوية في ظل العالمية، و يمكن المشتغلين في مجال علم النفس من مواجهة المشكلات التي تعترض مسيرة هذا العلم في الجزائر.

المراجع :

أبو حطب، فؤاد.(1997). مسيرة البحث في علم النفس في العالم العربي وآفاق تطويره. مؤتمر دور كليات التربية في تطوير التربية من أجل التنمية في الوطن العربي. كلية التربية، جامعة دمشق.سوريا .

بربزي ،عبد الله .(2010). التجربة السيكولوجية بالمغرب بين الواقع والمأمول .

http://www.anfasse.org/. نظر بتاريخ 2017/03/16

بلحاج، عبد الكريم .(2010). التفسير الاجتماعي لسببية السلوك، مدخل إلى المعرفة الاجتماعية.الرباط: دار أبي رقراق.

بلحاج، عبد الكريم.(2014).علم النفس بين المنظور العلمي والتمثلات الاجتماعية.

http://ribatalkoutoub.com نظر بتاريخ 2017/04/20

تقارير المؤتمر العربي لعلم النفس. (جوان، 1998). مجلة الثقافة النفسية المتخصصة،35(9)،95-117. لبنان:المؤلف.

حجازي،مصطفى. (2000).الصحة النفسية – منظور دينامي تكاملي للنمو في البيت و المدرسة. بيروت: المركز الثقافي العربي .

حجازي ،مصطفى. (2001).علم النفس مابين التحدي و البقاء و إعادة التكيف الهيكلي. مجلة العلوم التربوية و النفسية، 2(2)، 143-170.

حرب، علي. (2000).حديث النهايات، فتوحات العولمة و مأزق الهوية . بيروت:المركز الثقافي العربي.

خليفة، أحمد وآخرون. (1984). إشكالية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، دار التنوير : بيروت.

الخليفة، عمر، هارون .(2003).مالك بدري رائد عملية توطين علم النفس في العالم العربي .دراسات نفسية(2)، 120-137.

زيعور، علي.(1987). التحليل النفسي للذات العربية (ط 4) . بيروت: دار الطليعة.

عاقل، فاخر .(1965).نشاط العرب في العلوم الاجتماعية في مائة عام .بيروت.

عواشرية، السعيد.(2010). علم النفس: معارف مناهج التعليم العالي في الجزائر- مبينات هشاشتها و سبل تجويدها –حالة مناهج علم النفس و علوم التربية و الارطوفونيا نموذجا، في عدنان الأمين(محرر) ،نحو فضاء عربي للتعليم العالي

التحديات العالمية و المسؤوليات المجتمعية . أعمال المؤتمر الإقليمي العربي حول التعليم العالي . القاهرة 31 ماي، 1و2 جوان 2009، مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية الدول العربية : بيروت .

الكنز ،علي (1986). المسألة النظرية والسياسية لعلم الاجتماع العربي. مجلة المستقبل العربي (84).

ناشف، احمد. (2011). تعريب التعليم في الجزائر بين الطرح الإيديولوجي و الطرح المعرفي. الجزائر: كنوز الحكمة.

نزار، عيون السود(1995). نشوء وتطور الفكر النفسي الاجتماعي عند العرب.دمشق: اتحاد

الكتاب العرب.

Boucebci, Mahfoud .(1982).Psychiatrie. Société et développement. Alger: SNED.

Laroui, Abdallah.(1974). La crise des intellectuels arabes .Paris :Maspero.

Nadia, Kacha. Psychologie clinique en Algérie, le nécessaire combat. Dialogue 2012/2 (n° 196), p. 107-114. DOI 10.3917/dia.196.0107 http://www.cairn.info/revue-dialogue-2012-2-page-107.htm